



الازدهار الفرعوني والازدهار الإسلامي



د.رياض العيسى

2016/12/11



يوم تملكتم يميننا : الازدهار الفرعوني والازدهار الإيماني

حيرني منذ سنين سؤالان، أما الأول فهو: لماذا الإرث العمراني للحضارات السابقة أضخم بكثير من الإرث العمراني للحضارة الإسلامية؟ وأما الثاني فهو: لماذا حدد القرآن الكريم التفاصيل الدقيقة للنظام الاجتماعي واكتفى بتحديد القواعد الكلية للنظام السياسي؟ وبالرغم من الاختلاف البين بين موضوعي السؤالين إلا أن البحث أظهر أن إجابة كلا السؤالين واحدة! الأمر الذي حولني من الحيرة إلى الدهشة!

تحقيق السؤالين

قد لا يسلم لي القارئ الكريم بالمسلمات الضمنية التي يقررها كلا السؤالين، فيقول مستشكلاً على سؤال الإرث العمراني: لقد تركت الحضارة الإسلامية معالم عمرانية بارزة في حواضر الإسلام ومثال ذلك قصور الأندلس والإسطنبول! والحقيقة فإن هذا الاستشكال لا يصح، فتساؤلنا حول الإرث العمراني لا ينفي وجود إرث عمراني إسلامي ومتميز، ولكنه يتساءل عن التفاوت الكبير بين حجم الإرث العمراني الإسلامي والإرث الذي تركته الحضارات الغابرة، وهو تفاوت يبرز بشكل جلي لكل من يزور عواصم الحواضر الإسلامية كبغداد ودمشق والقاهرة ويقارن إرثها العمراني بالأوابد الشامخة في المدن الأوروبية الكبرى كباريس وروما وأثينا وأمستردام وميونخ، أو يقارنه بالمدن الأثرية الباقية في بلادنا كجرش في الأردن وبصرى في الشام أو الأقصر والأهرامات في مصر أو حتى أيا صوفيا في الإسطنبول!

أما القارئ الذي يستشكل سؤال النظام الاجتماعي فلعله يقول: لقد ذكر القرآن الكريم تفاصيل لكل مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية، وهذا الاستشكال أيضاً لا يصح، فتساؤلنا حول النظام الاجتماعي لا ينفي أن القرآن الكريم شمل أحكاماً للنظام السياسي، ولكنه يركز على التفاوت الكبير بين تفاصيل النظام الاجتماعي وتفاصيل النظام السياسي، وما هي دلالات هذا التفاوت؟ لماذا يحدد القرآن الكريم تفاصيل دقيقة حول النكاح والطلاق والعدة ودخول البيوت والأكل منها، وتفاصيل اللباس، بل مواعيد زمنية لحركة الأولاد في البيت ووضع الثياب؟ ولا يحدد تفاصيل تنصيب الخليفة وعزله؟!!!

قصة الإجابة : البداية

خلال السنوات الماضية ظهرت لي بعض المعطيات التي قد تساعد على فهم التساؤلين والإجابة عنهما، إلا أنها بقيت في عقلي كالشذرات المشتتة، فلقد شغلني تساؤل ثالث يدور حول تحديد أهم علل وهن المسلمين، فحرمني من فرصة التفرغ لوضع هذه القصصات من الأفكار والمعلومات إلى جانب بعضها البعض لعلها تكون نسقاً أو صورة واضحة.

ثم شاءت الأقدار أن أعمل بدوام جزئي مدرساً لمادة التربية الاجتماعية، وكان من المقررات المدرسية التي أدرسها للطلاب وحدة من مادة التاريخ للصف التاسع عن الحضارة الفرعونية، ووحدة أخرى من المادة التاريخ للصف العاشر عن الحضارتين الإغريقية والرومانية، ولقد لاحظت في ختام تدريسي للوحدتين أن الكتاب المدرسي يترك انطباعاً غالطاً لدى الطلبة حول هذه الحضارات، فالكتاب غير متوازن ولا يبرز عيوب تلك الحضارات، بل يبرز بعض العيوب على صورة محاسن، فعلى سبيل المثال يصف الحضارة الإغريقية بأنها مهد وأصل التأمل الفكري، كما يصف الحضارة الرومانية بأنها أصل الدولة المدنية لكونها فصلت الدين عن الدولة ! كما أنه لا يبرز فحش الظاهرة الفرعونية وهو أمر يناقض السياق القرآني الذي يكرر بشكل متواصل فضح فحش هذه الظاهرة ! مما يشير إلى أن الظاهرة الفرعونية باقية ما بقي الإنسان على هذه الأرض !

ملاحظاتي السابقة دفعتني للتعرف عن قرب على النظام الاجتماعي في الحضارات الثلاث، فتوصلت لحقائق مدهشة تقشعرها لها جلود الأسوياء وتذهل منها العقول، فلقد امتازت الحضارات الثلاث بأمراض جنسية تجاوزت حدود الهوس، فعلى سبيل المثال فإن المتتبع لقصة مدينة "بومبي" الإيطالية _ ليست بومبي الهندية _ يصعق من مدى بشاعة الانحطاط الأخلاقي الذي وصلت له هذه المدينة، والذي وثقه لنا بركان "فيزوف" عندما ثار عام 79 ميلادي ودفن المدينة وأهلها وهم على أوضاعهم الجنسية وشططهم المجنون، وبقيت المدينة الوثيقة تحت الأرض حتى عام 1738 م ، إلا أن المتحف الذي أنشئ ليحتوي على آثار المدينة أغلق بأمر الملك الإيطالي فرانسيس عام 1819م، وذلك لفحش المعروضات وخذشها بل جرحها للحياء العام !!! فهذه المشاهد القبيحة المجسدة بالتمثيل والرسومات احتوت على تجسيمات للآلهة المزعومة والإنسان والحيوان في أوضاع مشينة ! ويستطيع المرء بعد أن يطلع على هذا الجانب من الحضارة الإغريقية والرومانية أن يتفهم كيف حرفت هذه الحضارة هدي السماء المتمثل بالديانة المسيحية واتهمت الله عز وجل بما تند له الجبال أذاً، فمجسمات إله الخصوبة عند الإغريق والرومان لا يستطيع أن يقتنمها في بيته أي رب أسرة أمريكي أو أوروبي! هذه الحضارات كانت تغسل ملابسها بالبول البشري لقدرته على إذابة الدهون !! ولعل الفيلمين الوثائقيين اللذين أنتجتهما قناتا (بي بي سي) و (ناشونال جيوغرافي أبوظبي) عن مدينة بومبي الإيطالية هما التوثيق الأقرب لذائقة الإنسان المسلم السوي.

ولكن هل الحضارة الفرعونية تتشابه في هذا السياق مع الحضارتين الإغريقية والرومانية؟ البحث الأولي أثبت أن الحضارة الفرعونية تفوقت في الهوس الجنسي على الحضارتين الإغريقية والرومانية، ولعل هذه هي علة تركيز القرآن الكريم على فضح الظاهرة الفرعونية ومجارتها، فلقد دفع تأله الفراعنة واعتقادهم بتميز دمهم عن الدماء الأخرى إلى عادة تعد الأكثر قرعاً في الحضارة الإسلامية وهي نكاح الأم والأخت والابنة، فلقد انتشرت هذه الظاهرة بين الأسر الفرعونية الملكية، ونسبوا أيضاً لآلهتهم المزعومة، وجسدت تماثيل ورسومات معبد أبو سمبل في مدينة أقصر الإله "مين" الفرعوني في أقبح الأوضاع، حيث يمسك بعضوه التناسلي البارز بشكل فاضح ! ويؤكد علماء الإجيبنتولوجي أن المصريين القدماء اعتقدوا أن فيضان النيل يأتي من مني الإله "مين"، لذلك كانوا يحتفلون في موسم الحصاد بإخراج تماثيله القبيح إلى الحقول فيما يتعري الجميع ويحتفلون بتسلق الأعمدة ! وهو طقس أثار دهشة الباحثين الغربيين القادمين من أكثر الحضارات المعاصرة تشجيعاً على الإباحية !

وعلى الرغم من الذهول الذي أصابني به الحقائق السابقة إلا أنها وضعتني على الطريق الذي يجب كلا التساؤلين، بل وأكدت لي أن جواب كلا التساؤلين واحد؟!

قصة الإجابة : الحوار

للتأكد من ملاحظاتي السابقة حول الأثر السلبي الذي يتركه المنهج الدراسي على تصورات الطلبة للحضارات السابقة مقارنة بالحضارة الإسلامية قررت أن أجري حواراً معمقاً مع الطلبة وبينهم، وخصصت لهذا الحوار ثلاث حصص دراسية، وخلال أسبوع كامل حاولت وطلبتني الإجابة عن السؤال التالي: لماذا الإرث الحضاري العمراني للحضارات السابقة أضخم من الإرث الحضاري العمراني الإسلامي؟

في بداية الأمر لم يسلم بعض الطلبة بصحة السؤال ومسلماته الضمنية التي أشرنا إليها سابقاً، مدفوعين بحب تقليدي لحضارتهم الإسلامية. إلا أن سرد الشواهد والأدلة التي أشرنا إليها في القسم الأول من هذا المقال جعلهم يدركون وجهة التساؤل.

تفاوتت إجابات الطلبة في درجة وضوحها ودقتها وكذلك صحتها، فقامت بتوجيه الحوار أولاً نحو تفنيد الآراء والمقترحات الضعيفة، التي كان من بينها آراء بنيت على أساطير شائعة أو فهم مغلوطة لبعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ومن الأمثلة على تلك الآراء الرأي الذي يقول بأن أجسام البشر السابقين كانت ضخمة ومن ثم كان بناء تلك الأوابد الضخمة أمراً هيناً عليهم، واستشهد الطلبة هنا ببعض الأحاديث التي تصف ضخامة سيدنا آدم عليه السلام، وكذلك بعض المواد الإعلامية الساذجة المنتشرة على مواقع الإنترنت، في هذا السياق أوضحت للطلبة أن الأبحاث العلمية لم تتوصل حتى الآن إلى هيكل بشري يفوق بحجمه الإنسان المعاصر، وأن أقدم هياكل بشرية تم العثور

عليها حتى الآن التي تعود إلى ما يقارب المليون عام حجمها أصغر من حجم متوسط الإنسان المعاصر! كما أن الأبحاث العلمية عثرت على هياكل للديناصورات تعود إلى ما يقارب 68 مليون سنة، ومع ذلك لم تعثر على إنسان ضخيم، أضف إلى ذلك أن جثث الفراعنة أنفسهم موجودة وهي تطابق أجسام الإنسان المعاصر، ثم دعوت الطلبة للتفكير في قوله تعالى: "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون"، فما هي دلالة قوله تعالى: وزادكم في الخلق بصطة؟!

وكذلك من الأمثلة على المقترحات الغالطة الرأي الذي يعزو العمران الضخم إلى العلوم السحرية، حيث اقترح بعض الطلبة أن هذا العمران أنشئ بقوى سحرية، تفنيد هذا الرأي كان من الأمور الشاقة، في البداية اقترحت أنه لا توجد نصوص تاريخية تشير إلى ذلك، فلم تصلنا نصوص إغريقية أو رومانية أو فرعونية تشير إلى استخدام السحر في العمران، ثم إذا كان السحر مفيداً في العمران والقرآن الكريم يطالبنا بعمران الأرض، فلماذا حرم الإسلام السحر؟! بكل صنوفه وأنواعه؟! كما أن عورة هذا الاقتراح قد لا تتجلى في حالة الحضارة الفرعونية، ولكنها فاضحة في حالة العمران الروماني حيث لا يزال لدينا كثير من التفاصيل حول آليات البناء والعمران؟ ثم أنهيت الحوار حول هذا المقترح متسائلاً: لقد وثق القرآن الكريم لنا تسخير نبيه سليمان عليه السلام للجن في البناء وعلى الرغم من ذلك لا نجد في فلسطين - حيث يفترض أن سليمان قد عاش - بناء يفوق ما بناه الفراعنة؟! ومن الاقتراحات التي قدمها الطلبة أن الحضارة الإسلامية شغلت بالحروب والقتال عن البنين العمراني! وهنا أوضحت للطلبة الدور الهام الذي لعبته الجيوش والحروب في الحضارتين الإغريقية والرومانية، وأن الحروب قد تكون لعبت دوراً أكثر أهمية في كلتا الحضارتين مقارنة مع الحضارة الإسلامية، وكفى شاهداً على ذلك النظام الإسبرطي وحروب إسكندر المقدوني!

بعض الطلبة اقترح أن العلة كانت في حجم الموارد، فتلك الحضارات امتلكت موارد لم تمتلكها الحضارة الإسلامية، رداً على هذا المقترح أوضحت للطلاب أن هذا الأمر مستبعد جداً، خصوصاً أن الحضارة الإسلامية قامت في نفس المناطق الجغرافية التي شهدت قيام تلك الحضارات، كما أن بعض الوثائق التاريخية تثبت توفر موارد مهولة في فترات الحكم الأموي والعباسي، بل وفي عصر الخلفاء الراشدين خصوصاً إبان حكم الخليفة عثمان رضي الله عنه.

عند هذه النقطة بدأ بعض الطلبة بتقديم اقتراحات تقرأ الماضي بعيون تنظر إلى الحاضر المنحط، فاقترحوا أن العلة هي كسل العرب أو جهل المسلمين، في هذا السياق استعرضت مع الطلبة مجموعة من الإنجازات العلمية التي توصلت لها الحضارة الإسلامية التي كانت سبباً في ظهور العلم الحديث، بدءاً من علم الميكانيك واختراع آلية تحويل الحركة الخطية إلى حركة دائرية أو العكس، وأهمية هذه الآلية لظهور الماكينات والآلات البخارية، ثم التقدم المدهش في علم الرياضيات حتى أصبح فرعاً من فروع الرياضيات يحمل اسماً عربياً وهو الجبر، وكذلك مفهوم الخوارزمية وأثره في نشأة العمليات

المحوسبة، وأخيراً أبحاث ابن الهيثم حول الضوء والغرفة المظلمة وأثرها في نشأة فكرة الكاميرا. أما الاقتراح المتعلق بكسل العرب فمن السهل جداً نفيه عن العرب المعاصرين قبل الأولين، فالعمالة العربية المهاجرة في الغرب تظهر مستويات من الكفاءة تنافس معظم العرقيات الأخرى!!! في تلك اللحظة تقريباً بدأت مقترحات الطلبة تتوجه نحو الطريق الصحيح لإجابة التساؤل وفهم الظاهرة، فكانت مقترحاتهم تقودني كما تقودهم نحو فهم أعمق للظاهرة،... وتوجهت أنظارنا جميعاً نحو العقيدة؟!!

قصة الإجابة : الفكرة البذرة

بعدها قمت بمعارضة المقترحات السابقة بقدر معقول من الاستدلال، قدم أحد الطلبة (حافظ للقرآن الكريم) مقترحاً يقضي بأن علة التفاوت في الإرث العمراني هو العقيدة ؟ تساءلت حينها : ماذا تقصد بالعقيدة؟ هل العقيدة الإسلامية تحد من العمران بينما عقيدة الكفر تشجعه وتحققه في الواقع؟! حينئذ طور الطالب مقترحه بطريقة إبداعية، قائلاً: عقيدة التآله تحتاج إلى بناء ضخم لكي تدعم دعواها الزائفة؟ والبناء الضخم يحتاج إلى حالة استعباد واسعة، وكلا الأمرين يحاربه الإسلام. حينها قدمت بعض الشواهد التي قد تدعم استدلال الطالب، فالتآله بلغ أقصى درجاته في الحضارة الفرعونية وكذلك الاستعباد، وهي الحضارة التي تركت لنا أضخم الإنشاءات العمرانية. بدت الفكرة معقولة جداً لأغلب الطلبة، إلا أن تساؤلاً حول ماهية الإنجاز الأهم للحضارة الإسلامية بات يخيم على الأجواء!

قدمت للطلبة المقترح التالي : عقيدة الوحدانية إنجازها الأهم هو تحرير الإنسان من كل أشكال العبودية لغير الله الديان، ولعل هذا الأمر هو علة نبوغ الحضارة الإسلامية في علم الفلك ! فلقد انشغلت هذه الحضارة في دراسة السماء التي رفعت من غير عمد عوضاً عن رصّ الحجارة الضخمة فوق بعضها البعض لصنع سماء يختفي تحتها متأله عاجز عن مقاومة الموت فيخفي قبره تحت جبال من الصخور الضخمة لعلها تقنع عبیده بخلوده الكاذب !

وكانت من الآليات التي شجعها الإسلام لتحقيق الحرية من العبودية بناء الأسرة ! فالمتآله يحتاج لتأكيد ألوهيته حشود ضخمة من العبيد، وهذه الحشود لما انشغلت في البناء للمتآله وخدمته، لم تجد من الأرزاق ما يكفيها لإشباع شهواتها الحيوية التي منها الجنس، فلجأت إلى أشكال الجنس الطارئ والرخيص، أما الإسلام فلقد استغنى الله عن خدمة عباده له، ووعدهم بوافر الأرزاق إن هم أخلصوا العبودية له وتخلصوا من كل عبودية تستغلهم، وهو سبحانه لا تنفذ خزائنه، أما المتآله فمهما عظمت ثرواته يبقى عاجزاً عن تحقيق الأمن الاقتصادي لعبیده ! هذا إن تكلف عناء التفكير في هذا الأمر!



في نهاية الجلسة النقاشية استعرضت مع الطلبة بأسلوب تربوي يناسب مرحلتهم العمرية بعض الفواحد الأخلاقية الاجتماعية التي وقعت فيها حضارات المتأهلين،

قصة الإجابة: تطبيقات معاصرة

في الحلقة النقاشية الختامية كانت الإجابة تتبلور أمامنا، عقيدة التأله تستخدم العمران الضخم لتخفي تأله الإنسان، وتستخدم الاستعباد واسع النطاق لبناء الألوهية المزعومة، وهذا الأمر يمنع الإنسان من إشباع حاجاته الأساسية وعلى رأسها الجنس، فينتشر الجنس المؤقت والرخيص، وتدمر الأسرة.

والعكس تماماً هو ما يريده الإسلام وعقيدة التوحيد، تحرير الإنسان من كل أشكال العبودية التي تستغله، ثم توجيه طاقاته لإشباع شهواته، التي منها إشباع شهوة الجنس من خلال بناء الأسرة، وهي أسرة تتبع نموذجاً مثالياً وهو آل البيت! البيت الذي أنشئ في وادٍ غير ذي زرع ثقة برزق الله، البيت الذي قدم ابنه للذبح ثقة بالله، البيت الذي تخلص من كل أشكال العبودية حتى من العبودية للأسباب الطبيعية البديهية! ضرورة الماء والأبناء للبقاء!! فجعلهم الله محجاً لعباده حتى قيام الساعة، وقبلة للمتعبدين له! وأئمة للناس جميعاً!؟

تفاصيل النظام الاجتماعي في القرآن هي أسس النظام السياسي الإسلامي، النظام الذي فرض تزويج العبيد، ومكاتبتهم، النظام الذي قرن بين العبودية والبقاء! النظام الذي يبني شبكات القرابة والأرحام والجيرة، ولا يتناول في البنين العمودي لانشغاله بالتوسع الأفقي! النظام الذي يجعل من ملك اليمين آلية لذوبان الضعيف في جسم القوي، فيشاركه القوة! (انظر مقال يوم تملك يميننا)

<http://www.alshamtoday.com/news/read/7599>

لقد مكن التطور التكنولوجي في وسائل النقل والمواصلات القوى المتأله الغربية من استعباد الإنسان عن بعد، فلم تعد بحاجة لنقلهم إلى مدنها، إلا أن الأمراض التي أصابت أجدادهم عادت تصيهم وتصيب عبيدهم، ففي تسعينيات القرن الماضي حصدت الأمراض الجنسية وعلى رأسها مرض نقص المناعة حياة الملايين في أفريقيا حيث لا تزال مظاهر الاستعباد الغربي جلية ساطعة، وفي ذات السياق أصيبت الأمم الأوروبية بالعمق، فاضطرت إلى تبني بعض أبناء عبيدها كي تستمر! وسيجعل الشذوذ الذي شرعه الرئيس الأمريكي علاقات المجتمع الأمريكي مضطربة، فهم بهذا التشريع يقتلون الصداقة مهد المبادرات الإنسانية العظيمة من جماعات وأحزاب وثقافة وصناعة وشركات. ولعل من أكثر الأمور سخرية هو تأله العبيد! فالتألهون في مدن الملح وجزر الصحراء، يحاكون بأبراجهم أهرامات الفراعنة، لعلها تضيء شرعية على تألههم المصطنع والزائف حتى في معايير



المتألمين ناهيك عن معايير الموحدين ! فأبراجهم تشيد بواسطة مئات الآلاف من العمالة الرخيصة التي حرمت من أبسط حقوقها الإنسانية، كحق جلب العائلة والعيش في كنفها، ثم سمحت بالدعارة أو تغاضبت عنها لتوفر لهؤلاء المستعبدين إشباعاً طارئاً مؤقتاً ورخيصاً يجعل من الإنسان عبداً ممسوخاً، وفرض هؤلاء العبيد المتألمون سياسات اقتصادية أجبرت حتى الطبقة الوسطى من العمالة الوافدة على التخلي عن أسرها، وإرجاعها لوطنها، كما عضل هؤلاء المتألمون بناتهم وشرعوا القوانين التي تقول بقدسية دمائهم وحرمة نكاحها ! فأصبحوا أكثر شعوب الأرض عنوسة، وما خفي تحت هذه العنوسة أمر عظيم، ستفضحه الأيام القادمة كما فضحت الفراعنة، قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَبَرِّسُوا ﴿٩٧﴾ يَوْمَ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُؤْرَدُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾)

هذه المقالة دعوة لكل من ملكت يمينه أن يبقى يمينه قوية بالعبودية لمالك الملك الذي يعزم من يشاء ويذل من يشاء، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء
والحمد لله رب العالمين

شكر وامتان

أتوجه بالشكر لطلبتي الذين ساهموا بحواراتهم في تطوير أفكار هذا المقال، وأخص بالذكر الطالب الحافظ "محمد عمرو" من الصف التاسع لملاحظاته الثاقبة حول أثر عقيدة التآله والاستعباد على النظام العمراني والاجتماعي.